زرياب وأهل الوساوس

د. منصور خالد

زرياب وأهل الوساوس

النبأ المفزع الذى هز أهل السودان منذ بضع شهور عاد بى الى زمانٍ ليس بالبعيد كنت وصحاب لى نختلس فيه الوقت إختلاساً من هموم الحياة نصقل فيه قلوبنا حتى لا تصدأ ، وكان خوجلى عثمان واحداً من أهل المغنى الذين يملأون تلك السويعات التى نسترق بهجةً وحبورا . من هؤلاء الصحاب من ذهب الى رحاب ربه راضياً مرضيا ومنهم من ينتظر . ذكرتهم جميعاً يوم نعى خوجلى ، ذكرت علياً وعلياً ، وذكرت عثمانَ وعثمان ، وذكرت الأمير الغنى ، وذكرت الملك حفيد الملوك حسن ، ثم ذكرت بشيراً الذى يستبى تعزافه القلوب . وكان ذكى الفؤاد على الملك (أحد العليين) يطلق على خوجلى لقب زرياب ؛ ذلك الفتى الذى تعلم الغناء على يد إبراهيم بن المهدى فأشجى أهل المشرق فى بغداد ، ثم إرتحل الى الأندلس فتمايل على شدوه أهل المغرب فى قرطبة .

لا عجب أن ناح على خوجلى أهله فى حلفاية الملوك وهم يشهدون الموت يسطو على فتاهم فى ميعة صباه ، ولا بدع فى إنحلال الدمع المعقود فى عيون بعض صحابه لا تعرف التذراف . ولا مشاحة فى بكاء أهل الفن عليه فى كل مكان ب " دمع نازل كالمزن فى الهملان " فريدة صالح عبدالسيد التى طالما تغنى بها الفتى الراحل ، واهتز لها كل أهل السودان إلا من كان بأذنيه وقر . لا عجب ولا بدع ولا مشاحة فلولا الدموع لتصدعت الأكباد ، وفى قول العرب ؛ " الدمعة تذهب اللوعة " وعلى كل فالموت – أياً كان مصدره – رزية لا يملك البشر لها ردا ، " إنك ميت وإنهم ميتون " .

أعظم رزية من الموت الفجوع ظروف الزمان التى يتكالب فيها الموت على الناس على يد ملتاثى عقل ، ومجهولى أصل ، وخبثاء مذهب . ظروف الشقة المتواترة والمحن المطردة التى لا تنجب إلا المهووسين ؛ وظروف الفظاظة والإعتساف اللذين لا ينحدر رحيمهما إلا

الموسوسون . أشد رزيةً من كل هـذا إستشـراء الهـوس بإسـم الإسـلام وتحـت ظـل رآياتـه المرفوعة ؛ طوراً بسبب الجهل ، وتارةً بالتدليس . فتحـت رآيـات الإسـلام تواتـر الحـزن ثكلاً على ثكل . وتحت رآيات الإسلام تكاثر الموت ، قبراً وراء قبر . فمن الناس من دفع به المهووسون قهراً إلى آتون حرب لا يعود منها الى آله وذويه ، ومنهم من ماتو غيلـة فـى السراديب ، ومنهم من حصدوا فى المساجد دون أن يصيب أهلهم قِـوداً ولا وتـرا . كـل هذه الجنايات أرتكبت وما إنفـكـت ترتكب بإسم دين كريم يدعو الناس لـلرفق بالنـاس ، ويمنى الباطشين بالعذاب . ففى حديث الرسول صلى ا لله عليـه وسـلم رواه الطـبرانى فـى الكبير والأوسط بإسنادٍ حسنٍ : " من رفق بأمتى رفق ا لله تعالى به ، ومن شـق علـى أمتـى شق ا لله عليه " . وإسلام أو لا إسلام ، فإن المشاق التى يعانيها أهل السودان علـى أيـدى الرهط الذى يجثم على صدورهم لأمر لا تبيحه شرائع المجوس ناهيك عن شـرع الإسلام . رهط شر أولئك القوم ، بل هم الشر المحض .

وعلنا لا نظلم المتسرعين الى الشر من الاخلاط وعامة النـاس الذيـن ذهـب بهـم الغلـو الى إعتبار الموسيقى بدعـة والغنـاء ضلالـة ؛ هـؤلاء ضحايـا لتدليـس كبـارٍ أمعـرت قلوبهـم ، وأجدب وجدانهم . الشجب والإدانة نتجه بهما الى هؤلاء الكبار الذيـن جـاوز حكمهـم العدل والنصفة ، كما تجاوزت أحكامهم الإستواء والإعتدال . وجناية هؤلاء الكبار علـى الإسلام الذى يهرفون ويخطرفون بإسمه أكبر من جنايتهم على المسلمين . فقـد نبئنـا مثـلاً ، بأن اهل التدليس هؤلاء أعلنوا هذا العام عاماً لتطهير المجتمع من " الموبقـات " مثـل الغنـاء والرقص المختلط ؛ ليتهم أعلنوه عاماً لتوفير قوت الشعب فى سودان الجوع الأدقـع حتـى يرتع الناس من بعد أن فنىّ زادهم وهلك متـاعهم وليتهـم أعلنـوه عامـاً لـزرع الأمـن فـى نفوس أهلهم فى سودان الكرب " والجلجلة " فكل أهل السودان فى هـذا الزمـان اللعـين اصبحوا مثال شاعرهم ود الفراش : " بقيت فى جلجلة وشيتًا يشيب " لو انجزوا هـذا لـما تركو لخصومهم من أهل السياسة ما ينتقصون عليهم ، دعك عـن سـواد النـاس ، فسـواد

الناس تركوا لهذه الغالية الحكم والسلطان ، وتركوا لهم التجارة والصناعة والزراعة والتموين راضين لأنفسهم بالدون من العيش . ولكن هيهات ، فقد أبى الغلاة إلا أن يلاحقوا عامة الناس فى كل مكان ، يلاحقون الفتيات فى الطرقات ، ويلاحقون الصبية فى المدارس ، ويلاحقون الركع فى المساجد ، ويلاحقون اهل الفن فى دور فنهم ، هذه كلها إمور ينبو عنها طبع أهل السودان ولا يقدم عليها إلا من إستحكم حمقه .

كنا نضحك ونحن نتسمع لما يرويه الرواه عن أن واحداً من هؤلاء الكبار اقتحم دار الإذاعة السودانية لتطهيرها من كل أثرٍ مسموع يتغنى فيه أهل الوجد بالحسن والمدام ، وقلنا يا للغباء ، فأهل الوجد هؤلاء هم الذين بنوا للعربية أساسها وأحكموا أمراسها فى وجدان أهل السودان حتى توحدت بينهم المشاعر ، وكانت هذه الفسيفساء الرائعة التى نسميها السودان . فى هذا البلد الفسيفسائى ، من العربية والإسلام أطياف ، ومن النوبية والزنوجة آثار لا تغيب على الناظرين . وبما أنا نخاطب من أظنو أنفسهم حماة للإسلام فى السودان نقول لهم بأن مدخل أغلب أهل الوجد هؤلاء الى العربية – اللسان الجامع لأهل السودان – كان هو القرآن ، درسوه فى الخلاوى وإستأنسوا بإعجازه الفنى فى شعرهم . من هؤلاء من ربا منهم فى بيت علمٍ ودين مثل البنا ، أو من جاء الى الإسلام بآخره كصالح عبدالسيد (أبوصلاح) .

فما أكثر ما إستوحى هؤلاء ، الحداة روائعهم مما حفظوا من كتاب ا لله ، وما تلمسوا فى قصص القرآن ، فما جاء البلاغى سيد عبد العزيز " حوار " معهد أم درمان العلمى بقوله :

هى فى الجمال زى يوسف والوهيبه كمان تمتاز بديساً مايل وبى نهيد رُمان

إلا مما تعلمه من قصص القرآن ومنه قصة يوسف ، وحذو سيد ذهب خدن روحه عبيد عبدالرحمن في التأثر في بعض شعره بالقرآن دون أن يرتاد خلاويه :

يرضيني ما يرضيك والناس امورها امور ومحال اسيبو هواك اذا السماء تمور

هذا العجز في تصريعه الشعرى جاء به عبيد من قوله تعالى " يوم تمور السماء مورا " ومثل أبوصلاح القبطى الذى حنا للإسلام وأخذ يقبس من إعجازه الفنى مثل رائعته اليانعة : " الشجر أقلام جميع والنيل مدادا ، لو كتبت أشواقى ليك ما عددا " وذلك قبس من كتاب ا لله " قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفذ البحر قبل ان تنفذ كلمات ربى " وصُور القرآن تراها فى اكثر من بيت فى تلك الرائعة : " يالمحجب فى غرف ذات العماد " وكأن فتاة " القلعة " التى سلبت لب أبى صلاح هذا كانت مستكنة فى إرم التى جاء ذكرها فى سورة الفجر ، أو قوله " دك الحجارة وهمدا " ، هذا وصف يذكّرك بسورة الحاقة . وعل الباحث يجد الواناً من هذا عند آخرين من فحول الأدب السودانى الغنائى مثل ود الرضى .

ومن جانب آخر ، ما جاء واحداً من هؤلاء بشيء لم يسبقه اليه جرير والفرزدق والبحترى كما لم يذهب أى منهم فى شعره الى مجون عمرو بن أبى ربيعة وأبى نواس أو الى زندقة شيخ المعرة ، وقد ظل الحب والجمال والخمريات هو أكثر ما تغنى به هؤلاء ، فلا الهجاء ولا الرثاء ولا أغلب الفخر يصلح للغناء ، هؤلاء الشعراء الفحول هم صناع ديوان العرب الذى قال فيه شيخ المفسرين وإبن عم الرسول ، عبدا لله بن عباس " إن أعياكم تفسير آية من كتاب ا لله فاطلبوه فى الشعر فإنه ديوان العرب " وحقاً لم أعرف من شعراء الغناء السودانى شاعراً واحداً تغاوى فى شعره كإبن أبى ربيعة الذى يستهوى عبدا لله بن عباس بإنشاده ، ويحدث صاحب الأغانى فى رواية معنعنة " بينما إبن عباس فى المسجد

الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه ، إذ أقبل عمر بن ابى ربيعة فى ثوبين مصبوغين حتى دخل وجلس فأقبل عليه بن عباس يقول " انشدنا " فأنشده :

أمن آل نعم انت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

حتى أتى على آخرها ، فإنبرى نافع بن الأزرق لإبن عباس يقول " الله ، الله يا إبن عباس نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصى البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا ويأتيك غلامٌ مترفٌ من مترفى قريش فينشدك " فما كان من إبن عباس إلا أن اعاد ترديد القصيدة كلها ثم قال لنافع " إنّا نستجيدها " .

متفيقهو السودان اصحاب القلوب الغلفاء والفكر الأصلع هؤلاء لا يملكون رقة ابن عباس حتى يستجيدوا شعر الوجد كما إستجاده ابن عباس فى المسجد الحرام ، ومع هذا فلم يذهب أى واحدٍ من شعرائنا مذهب إبن أبى ربيعة فى الخلاعة ، تشبب أبوصلاح فى كل بوارعه دون أن تهفو نفسه للغواية :

فى المهالك عمنا ورسينا ولى شروط الهوى ما نسينا

فى الغرام اصبحنا ومسينا يا نجوم السما آنسينا

يا مناظر لا تبعتينا لى شروك الغى المتينا

وقضى شاعرنا المبدع على المساح الذى لم يرتاد خلوة أو يدخل مدرسة نظامية جل لياليه يسارى الأنجم لوعة فى محبوبة دون أن ينسى أن لدينه فروضا يذكرها الخابت والمتشبب :

منادى الفجر نادى وقال يا اهل الفلاح

صلوا الوقت حاضر ، قاموا اهل الصلاح

وعلى كلٍ فإن هذا الشعر العربى السودانى " الأمدرمانى " هو المصهر الذى وحد مشاعر أهل السودان الشمالى . إلا أنه ايضاً ما كان للإسلام نفسه أن يستكن قلوب اهل السودان جميعاً من الزنج والنوبة والمستعربة إلا لقدرة أهل الباطن " المتصوفة " على غرسه

فى النفوس وتقريبه إليها عبر التطريب والهزج ، فإسلام السودان لم ينشره أهل الظاهر من العلماء الذين حفظوا علوم الشرع لأن هؤلاء لا تفهمهم إلا القلة المصطفاة ، اما عامة الناس فقد تقرب اليهم المتصوفة وقربوا الدين الى أفئدتهم بما يثير حواسهم ، بضرب الدفوف والنقارة والطار ، وأكثر هؤلاء تبنى الإسلام ديناً دون إستكهان لدلالاته الخفية ، هذا هو حال الاسلام فى السودان ، كما هو حاله فى كل بلاد افريقيا ، وليس مصادفة ان اوسع الطرق الصوفية ذيوعاً فى السودان هى الطريقة القادرية ، اكثر الطرق تأفرقاً فى ذكر ا لله ، ولو بقيت القادرية الجيلانية فى صورتها الاولى كما وردت فى الحزب السيفى من أوراد الربانى السيد أحمد بن إدريس لما كتب لها الذيوع ، وعلم ا لله لو كان متقدمه الدعاة الإسلاميين مثل متأخرتهم فى الغلواء والتزيد لما توطن الاسلام فى السودان ولما قامت له قائمة فى افريقيا .

على أن هؤلاء الغلاة الذين يستبدعون الشعر والغناء والموسيقى باسم الإسلام ؛ واولئك المتزايدون الذين يتفاخرون بالعروبة – بمن فيهم من إنحدروا الى بلادنا من سفوح تكرور وسهول كانم ووداىّ مسترقين فى ظهور أمهاتهن – يجهلون ما يجهلون به عن العروبة والإسلام معاً ، بل يكاد مستعربة الأطراف ومسلمو القرن السابع الهجرى هؤلاء يوحون للناس بأنهم أكثر عروبةً من أهل تهامة وأكثر إسلاماً من أهل مكة ، إن الغناء الذى يستبدعون قد عرفته العرب منذ جاهليتها ؛ وكان غناء العرب فى الجاهلية ، كما وصفه إبن رشيق القيروانى (العمدة فى محاسن الشعر) هو النصب والهزج ، والنصب هو الحداء وغناء الركبان ويخرج من اصل الطويل فى العروض ، اما الهزج فهو الخفيف ، وبمجىء الإسلام تعرف العرب على الغناء المموسق ، وفى هذا يحدثنا إبن خلدون فى المقدمة بأن العرب لم تعرف تلك الصناعة لأنهم كانوا أهل بداوةٍ " لم ينتحلوا علماً ولا عرفوا صناعةً ، وكانت البداوة اغلب نحلهم ، ثم تغنى الحداة منهم فى حداء ، ابلهم والفتيان فى فضاء خلواتهم فرجّعوا الاصوات وترنموا بها "

أو يعلم موسوسو السودان كيف بدأت صناعة الغناء تلك ؟ بدأت بعـد أن جـاوز العـرب سلطان العجم واخذوا من صنائعهم ومنها ضرب العود، أويعلمون اين بدأ ضرب العود ؟ بدأ فى مكة المكرمة والمدينة المنورة وكان أول من ابتدره فى مكـة المولى عبيـد بـن سـريج وهو ينغم الشعر فى الكعبة لعمال الفرس الذين جاء بهم عبدا الله بن الزبير لإعادة تعميرها وأغلب أهل المغنى كانو من القيان والموالى ، وكما عرفـت مكـة بعـد الإسـلام عـزف إبـن سريج عرفت المدينة غناء معبد الذى قال عنه الأصـبهانى صاحب " الأغـانى " بانـه كـان من أحسن الناس غناءاً واجودهم صنعـةً ، ولم يكـن يجارى معبـداً فـى حسـن الصـوت إلا مالك بن أبى السمح الذى جاء به أبوه الى حمزة بن عبدا الله بن الزبير بعد أن أصابت أهلـه فى طىء حطمة ولم يبق له زاد يكفل به بنيه ، وإنتهى الأمر بمالك الى عبدا الله بن جعفر بـن أبى طالب فكفله ورعاه ، ويروى الأصبهانى أن واحداً سأل مالكـاً هـذا فـى جلسـة عنـد عبدا الله بن جعفر بن أبى طالب " أأنت احسن غناءً أم معبـد ؟ " فـرد مـالك " وا الله لـو لم يغنى معبد غير

لعمر ابيـــها ما تقـــول حليلتى الا فـــر عنى مـالك بن ابى كعب
وهم يضربون الكبش تبرق بيضه ترى حوله الابطال فى حلق شهب
اذا انفذوا الزق الروى وصرعـو نشاوى فلم اقطع بقول لهم حسبى

لكان حسبه ، هذا الشعر الذى تغنى به مالك فى مجلس عبدا الله بن جعفـر بـن أبـى طـالب هو شعر لمالكٍ آخر (مالك بن كعب الخزرجـى) كـان يتغنـى فيـه بكـرم أهلـه وبالشـرب الذى يسقط نشاوى صرعى ، فإن كان هذا هـو حـال الشـاعر الخزرجـى القرشـى قريـب العهد بالمبعث وحال المتسمع اليه الذى تجمعه برسول ا لله آصرة وشـيجة فمـا بـال عـرب الاطراف هؤلاء يثقلون على الناس بعيد ذلك العهد وفـى سـودان النوبـة المسـتعربة دعـك عن الدينكا والشلك والنوير والتاما والقمر والداجو ومن والاهم من أقـوامٍ لا تطيـب لهـا

حياة إلا بالرقص والتدفاف على النقارة والطار والدُهلة ، ما بالهم يستنكفون أن يضم أرشيف الأدب السودانى القومى مثل قول شاعرنا العظيم الذى نفاخر به :

قول نحن فى روض الجنان المولى يرخيلنا العنان
رعيا لمخضوب البنان خلانى دن بين الدنان
ناولته كاس قال لى عجب مازحته مال عنى احتجب
دابرونى يا ناس ايش عجب ود الدروع صايم رجب

قائل هذا النسيب الرقيق شاعرٌ نوبىٌ من جزيرة صاى فى أقصى الشمال ، لم يرضع العربية من لبان أمه ومع هذا غالب أهلها فى البلاغة وغاص فى بطونها حتى أدرك امرؤ القيس وأخذ يزاوج بين درر ذلك الجاهلى الفحل وبين لسان أهله :

مافى عمار ، ده سحاب وراطم سهمك طاش مهلاً افاطم

ونداء خليل فرح لمحبوبته ترجيع لنداء امرىء القيس لفاطمة التى ازمعت صرمه " أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل " هذا التزواج والإثراء المشترك بين الثقافات الأصلية والثقافة الوافدة هو سر عبقرية السودان ، السر الذى لم يعيه بعد من يعتزى بنسب زائف للعروبة المطلقة ، نعم ما بال هؤلاء يحسبوننا نركب المناكير إن إهتززنا طرباً لخليل فرح النوبى وهو يشدو بالعربية " ناولته كاس قال لى عجب" " خلانى دن بين الدنان " تماماً كما إهتز مالك بن إبى السمح فى حضرة عبدا لله بن جعفر بن إبى طالب لقول ابن كعب الخزرجى " اذا انفذوا الزق الروى وصرعوا نشاوى "

على أن مهنة الغناء عند العرب لم تقف عند الموالى والقيان من الفارسيين والفارسيات بل إنتهت فى عهد بنى العباس إلى أبناء الخلفاء فى زمان كان أئمة الفقه الإسلامى فيه هم مالك فى المدينة يحمل الناس على موطئه ، وأبو حنيفة النعمان وأحمد بن حنبل فى بغداد ،

وقد أورد الأصبهانى فصلاً كاملاً فى " الأغانى " أسماه الغناء وصنعته عند أولاد الخلفاء الذكور منهم والإناث ، أشهر هؤلاء ذكراً كما يقول صاحب الأغانى هو إبراهيم بن المهدى بن هارون الرشيد ، وكان بن المهدى فى بداية عهده بالغناء يتغنى فى تصون وخلوة مع الخليفة الأمين حتى جاء الخليفة المأمون واستندمه فأخذ يتهتك بالغناء فى مجلسه وقد أخذت عليه بنت المهدى عن أخيها ابراهيم صنعة الغناء وكانت على حسن دينها ، تلذ بالغناء ، ومن أبناء الخلفاء الذين إمتهنوا الصنعة ايضاً كما يروى صاحب الاغانى ، عبدا لله بن موسى الهادى وكان أكثر غنائه للأخطل ؛ وعبدا لله بن الأمين بن هارون الرشيد الذى كان ينادم الخليفة الواثق ثم واظب على منادمة الخلفاء حتى المعتمد ؛ وابو عيسى إبن الخليفة المتوكل الذى آل على نفسه أن لا يكف عن الغناء حتى يكمل ثلثمائة وستين صوتاً بعدد أيام السنة ، وكان جل غنائه لأبى العتاهية وعلى بن الجهم ، وعلى حذو ابن عيسى كان عبدا لله بن المعتز .

ومهما يكن من امر فإن الموسيقى والغناء ليسا مجوناً حتى يقضى متفيهقو السودان بإبادتهما وتقتيل أهليهما ، ولعل أدعياء نشر حضارة الإسلام على العالمين يجهلون بأن هذه الحضارة قد أفردت لفن النغم مكاناً بارزاً فى آثارها الأدبية ، فقد كتب الخليل بن أحمد الفراهيدى فى النغم والإيقاع ، ووضع الفارابى كتاب الموسيقى الكبير كما صمم الناى والقانون ، والف صفى الدين الأموى فى الأدوار الموسيقية ، وكتب إسحق الموصلى كتاب الأغانى الكبير الذى إختفى من الوجود ، وعند إختفائه نقف ، ذلك الكتاب مع غيره من الآثار الأدبية العظيمة دُمِّر تحت وطأة خيول هولاكو وهى تجتاح بغداد ، وهذا هو عين ما ذهبت إليه الهولاكية الجديدة التى يباشرها اليوم تتار السودان ممن زنى الشيطان بعقولهم .

ونسأل من بعد ، ما الذى يعنيه الغلاة عندما يستنكرون الرقص والغناء والموسيقى بدعوى مناهضتها للتقاليد والمواريث ؟ مواريث من هذه التى يتحدثون عنها ؟ فإن حسبوا انفسهم خالفة " لأسلافهم " الأعراب من الأوس والخزرج أو بنى عبد شمس وبنى العباس – وهذا أمر فيه مزاعمٌ – فإن آثار تلك السالفة فى الغناء والموسيقى هى ما نقله لنا إبن خلدون فى " المقدمة" والأصبهانى فى " الأغانى " والقيروانى فى " العمدة " والمسعودى فى " مروج الذهب " وغيرهم من المؤرخين الثقاة مما نقلنا جوانب عنهم ، وان كانو – كما نحن وهم بحق – امة خليط متنوعة الاعراف متعددة المواريث ، بقدر تنوع وتعدد اعراقها ، فما بالهم لا ينظرون الى مواطىء اقدامهم قبل أن يتجاوزوا المدى فى خداع النفس .

إرتغبنا أن نقف بالحديث عند هذا الحد لولا معاظلة حكام السودان وإعتسافهم فى الأحكام يسوقانا الى مزيدٍ من القول ندحض به ما يتحاجون به على الناس ؛ ومن بين ما يتزعمون أن الغناء بدعة فى شرع الإسلام . هذا حديث فيه قولان ، كما يقول الفقهاء ، على أن فقهاء الزمان القديم كانوا على قدرٍ كبيرٍ من التواضع العلمى لأنه ما افتى الواحد منهم فى امرٍ إلا واختتم فتواه بكلمتين : " وا لله اعلم " وبينا وبين متفيقهى هذا الزمان حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى ، الذى كثيراً ما إستنجد به الشيخ الترابى إمام الغالية الجديدة كلما إستبحث رأياً رشيداً يؤصل به الأحكام والقياس ، أفرد الإمام الغزالى فى سفره الكبير " إحياء علوم الدين " باباً كاملاً عن الغناء أسماه باب " آداب السماع والوجد " لأن الغناء عنده " يثمر الوجد فى القلوب " لينصت المهووسون الى قول ابى حامد فى الغناء " أعلم أن قول القائل السمع حرام معناه ان ا لله يعاقب عليه وهذا أمرٌ لا يعرف بمجرد العقل ، فمعرفة الشرعيات محصورة فى النص أو القياس على المنصوص ، ولا يدل على تحريم سماع نص ولا قياس ، وقوله تعالى " ان انكر الاصوات لصوت الحمير " يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن ، ولو جاز أن يقال إنما ابيح بشرط أن يكون فى القرآن (أى الترتيل) للزم أن يحرم صوت العندليب لأنه ليس من القرآن . واذا جاز

سماع صوتٍ غفلٍ لا معنى له كصوت العندليب فكيف لا يجوز سماع تفهم منه الحكمة والمعانى الصحيحة " .

لم يقف الفقيه فى كتابه الناطق عند ذلك القياس البارع بل اتبعه بتحليلٍ نفسى لا يقل روعةً حول الفطرة الطبيعية التى جبل الله عليها الناس ، قال الغزالى " من لم يحركه السماع فهو ناقصٌ مائلٌ عن الإعتدال ، بعيدٌ عن الروحانية زائدٌ فى غلاظة الطبع وكثافته عن جميع البهائم فإنها تتأثر جميعها بالنغمات ، أو عرف هذا الرهط الذى يدفع باحكام الإسلام الى غلاةٍ مدهمةٍ لا علم فيها ولا علامة اين هو مكانهم ، لا بين المجتهدين ، بل بين البشر ؟.

وفى النهاية يخطىء من يحسب بانا نشد من هذا المقال تكيفاً فقهياً للغناء والموسيقى والرقص لأنا نوقن ، بوجه عام ، بأن الإستجابة لكل ضروب الفنون إمرٌ فطرىٌ ، كما ندرك ايضاً بوجهٍ خاص بأن الذى يبغى التأصيل لمواريث السودان الثقافية عليه ، بدايةً ، أن يبحث عن أصولها فى ربابة البجة والنوبيين ، وتندكة الفور ، وطنبور الشايقية ، وتمايل القونج (أول من اقام دولةً اسلاميةً فى السودان الوسيط) على صياح الأمبايه ، وترنيمات الدينكا ومن عداهم من النيليون ، وطبول القادرية ، وتهزيج الطنبور الصوتى عند عرب الغرب مثل الشنابلة . هذا هو السودان الذى نشأنا فيه ، وهذه هى المواريث التى نُسجت بها وحدته خيطاً خيطا . وان كان لأهل السودان ، على تنوع وتعدد ثقافاتهم التى شبوا عليها ، ان يعيشوا حياتهم التى الفوا فلابد لهذا الولس والدلس ان ينتهى ، ولابد لهذا الظلام الذى أغلق على أهله المراشد ان يتقاعس ، وليكن فى مصرع " زرياب " دليلاً جديداً على جنايات رهطٍ لا يرجى منه خير ، ولا يؤتمن له شر ، هذا حديث نوجهه لذوى الوتر الذين الهاهم التعاظل بالكلام حول الرسوم والاشكال للوراثة المرتقبة قبل أن ينقم الرجل منهم وتر ، من هذا النمر الورقى الذى يرعب بعض أهل السودان .